الخطاب الإسلامي المعاصر.
أهميته وتحدياته

يعقوب عزوز/طالب دكتوراه

تحت إشراف: أ د ميلود شكار

جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر2

ملخص:

إن واقع الانحطاط الحضاري الذي يعيشه العالم الإسلامي بمختلف أقطاره، وكذلك صور حملات الغزو الخارجي، والخطابات العدائية المخاصمة للإسلام التي تسعى إلى التوغّل في عمق المجتمع الإسلامي بمختلف منظوماته وهياكله، استدعت كلّها يقظة الخطاب الإسلامي، من حيث هو خطاب تجديدي يعمل على بعث نور الإسلام، والتعريف بمقاصده وإحياء قيمه الإنسانية والحضارية العالمية.

هذا الخطاب الإسلامي الذي يعبّر عن الوعي بحقيقة أزمة العالم الإسلامي وحاجياته الرّاهنة، يخاطب المسلم بهدف إعادته إلى مستوى الفعالية والمساهمة الجادة في البناء الحضاري الجديد، كما يخاطب غير المسلم بهدف إبراز الصورة الصحيحة عن رسالة الإسلام العالمية؛ غير أن هذا الخطاب الإسلامي المعاصر ورغم أهميته، يواجه تحديات داخلية وخارجية، أعاقت فرص وسلاسة تجسيده، وفي مضمون هذا الإطار يندرج مقالنا هذا الذي يهدف إلى التعريف بأهمية وتحديات الخطاب الإسلامي المعاصر.

الكلمات المفتاحية: الإسلام؛ الخطاب الإسلامي؛ الأهمية؛ البناء الحضاري؛ التحديات.

.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

المقدمة:

لا تزال رهانات النهضة بمختلف تحدياتها وأسئلتها تواجه الأمة الإسلامية قاطبة، وتشكل عبئا مرهقا تعذّرت على الباحثين في شؤونها بلوغ أجوبة الخلاص حولها، وبقيت قضايا النهضة وما يرتبط بها من جدالات خطابية قائمة ومستمرة الطرح، وبخاصة مع بروز مصطلحات ومفاهيم نهضوية متضاربة وشائكة ماثلة للعلن، أسهم ظهورها في زيادة عمق أزمة النهضة في العالم الإسلامي، وكانت مصدر قلق نخب الفكر الإسلامي منذ انبثاق أزمة النهضة العربية مع مطلع القرن التاسع عشر.

وفي خضم هذه الظروف برزت خطابات فكرية متعددة سعت إلى تغيير واقع الأمة الإسلامية والنهوض به، خطابات في عمومها وجدت نفسها تتجادل حول المناهج والمشاريع التي بإمكانها تحقيق اليقظة وتجاوز مظاهر الانحطاط التي لحقت بالقطاعات الاجتماعية في الأوطان الإسلامية، وتسببت في التخلف مقارنة بما بلغته الحضارة الغربية، ولعل من أبرز هذه الخطابات التي ألقت بظلالها وراوحت مكانها في سلسلة الخطابات النهضوية الإسلامية، يبرز الخطاب الإسلامي، الذي استدعته ظروف ومتطلبات العصر المتغيرة، والحاجة إلى تجديد الفكر الإسلامي، وإحياء منظومته التشريعية؛ هذا الخطاب الديني انقسم في عمومه إلى خطابين عامين، أحدهما يدعو إلى العودة إلى تراث الأمة الأصيل ونهج منهج السلف رافضا الاحتكاك بقيم الحضارة المعاصرة، وأما الخطاب الثاني فقد اتخذ من الوسطية بين قيم التراث الأصيل وقيم المعاصرة منهجا له.

وبعيدا عن جدلية أيّ الخطابين بإمكانه استيعاب مشكلات الأمة واسترجاع عزتها المفقودة، فإن الثابت أن الخطاب الإسلامي الراهن ورغم أهميته في التعريف برسالة الإسلام، يواجه مشكلات وتحدّيات، كثيرا ما شكلت حاجزا منيعا أمام مسيرته في إرساء وتأصيل بناء حضاري يساهم في إثبات وجوده، وصناعة ذاته، هذه التحدّيات بتفرعاتها ودرجة تأثيرها، تتراوح بين ما هو داخلي مرتبط بطبيعة القيم الحياتية السائدة في المجتمع، أو بطبيعة الخطاب الفكري الذي يسعى ليفرض نفسه ويثبت جدارته وأحقيته بالتجسيد، ومنها ما هو خارجي يرتبط بحركية العراك مع الفكر الغربي وأهدافه التي تتجه نحو السيطرة ومحاربة منظومة قيم وخصوصيات الهوية المحلية، واعتماد مختلف الوسائل والآليات لتحقيقها، وفي الوقت نفسه خلق حالة الاضطراب وعدم التوازن في استيعاب حقيقة ما يسري في مجرى الحضارة، ومن خلالها تعطيل مسارات الحلول والعلاج، وبخاصة لما يتعلق الأمر بمنتج التراث الحضاري.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحول مضمون هذا الخطاب الإسلامي المعاصر يندرج مقالنا هذا، الذي نهدف من خلاله إلى استقراء أهم معالمه، والتعريف بأهميته وقيمته في ظل ما يواجهه العالم الإسلامي من تحديات ورهانات حضارية، تستدعي إثبات الذات والتعريف بقيم عقيدته ونشرها على أوسع نطاق ممكن، وكذلك الإطلاع على جملة تلك التحديات التي يواجهها في مسعاه نحو تجديد القيم الإسلامية، وتحقيق استمراريتها، وتجسيد معالم رسالة الإسلام، وفي هذا الإطار نتساءل: ما المقصود بالخطاب الإسلامي؟ وما أهميته في ظل ما يعيشه العالم الإسلامي المعاصر من مستجدات وحركية حضارية متسارعة؟ وما أهم التحديات التي تواجهه، وتعيق مسار تجسيده وتفعيل مقاصده؟

أوّلا: ماهية الخطاب الإسلامي

مبدئيا تجدر الإشارة إلى أن الخطاب الإسلامي يتضمّن مستويين، فيما يوضّحه المفكر الإسلامي المعاصر عبد الوهّاب المسيري: مستوى الخطاب الإسلامي القديم، ومستوى الخطاب الإسلامي المعاصر، أما الأوّل فهو ذلك الذي ظهر مع دخول الاستعمار إلى العالم الإسلامي، وهيمن عليه حتى منتصف ستينيات القرن العشرين، انشغل بتقديم رؤية إسلامية لظاهرتي التّحديث والاستعمار، فكانت هناك رؤية معادية رافضة لحداثة الغرب، بينما رؤية أخرى راح أقطابها يبحثون في كيفية التصالح مع الحداثة الغربية والمزاوجة بين الإسلام والحداثة؛ وأما الخطاب الإسلامي المعاصر - الذي سيكون موضوع دراستنا - فهو ذلك الخطاب الذي بدأت معالمه تتبلور أكثر في منتصف ستينيات القرن العشرين، ويختلف عن الخطاب الأوّل في الموقف من الحداثة الغربية، فقد تبنى خطابا نقديا تجاه الحداثة الغربية، رافضا امبرياليتها، مدركا أزمتها، واعيا بمزاياها ونظرياتها في العلوم والفنون المعمارية، وهو بهذا يدعو إلى الانفتاح الاستكشافي التفاعلي والنقدي على الحداثة الغربية، والتمييز بين حلوها ومرّها (المسيري، 2006، ص59-62).

ويبدو للوهلة الأولى أن مصطلح الخطاب الإسلامي وثيق الصّلة بالدّين الإسلامي، وما جاء به من قيم وتوجيهات وتشريعات مقدّسة تضمّنها القرآن الكريم والسنّة النّبوية الشّريفة، وتنبغي الإشارة هنا إلى ذلك الفارق في المعنى بين مصطلح "الخطاب الإسلامي"، ومصطلح "خطاب الإسلام"، فأمّا هذا الأخير فمدلوله النصّ الّديني الذي تضمّنه القرآن الكريم، وكذلك ما بيّنته السنّة النّبوية، فكلاهما خطاب موجّه للبشرية بقصد الهداية والإرشاد بما يضمن صلاح الدّين والدّنيا، وله صلاحية البقاء والاستمرارية الدائمة، طالما أنّ مصدره الوحي الربّاني الخالد والمنزه والمقدّس.

وأما الخطاب الإسلامي، فإنّه يرمز إلى الخطاب البشريّ، وإنتاج المسلمين تحديدا، في إطار ما جاء به الوحي وشرّعه، من خلال الاجتهاد في فهم نصوص الكتاب والسنة، بهدف استثمارها في تشريع وفقه شؤون الحياة، ليكون بذلك خطابا فقهيا للواقع ومستجدّاته، قابلا للمراجعة المستمرّة الراشدة، كلّما استجدّت الوقائع واستدعت الظّروف تعديل وإعادة تقويم آليات ومناهج الخطاب السائدة، وتصحيح أخطائها، واستيعاب ما طرأ فيها من أحداث، وأخذ العبرة منها في التأسيس للخطاب الجديد، وكل هذا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بقصد أن يبقى للإسلام حضوره الحيوي والفعلي، ويستمرّ عطاؤه في حياة النّاس، ولا يصاب بالجمود والتّراجع، فيجد أعداء الإسلام حينها الموضع المناسب لغرس سيوفهم المسمومة، وتلفيق التّهم للإسلام بالتخلّف والعجز عن مواكبة متغيرات حضارة العصر.

ومن تعريفات الخطاب الإسلامي ما أورده الشيخ يوسف القرضاوي بقوله «البيان الذي يوجّه باسم الإسلام إلى النّاس مسلمين أو غير مسلمين، لدعوتهم إلى الإسلام، أو تعليمه لهم، وتربيتهم عليه: عقيدة أو شريعة، عبادة أو معاملة، فكرا أو سلوكا، أو لشرح موقف الإسلام من قضايا الحياة والإنسان والعالم فردية أو اجتماعية، روحية أو مادية، نظرية أو علمية» (القرضاوي، 2004، ص15).

ومن معاني الخطاب الإسلامي كذلك أنّه: «الخطاب الذي يستند لمرجعية إسلامية من أصول دين الإسلام، القرآن والسنّة، وأيّ من سائر الفروع الإسلامية الأخرى، سواء أكان منتج الخطاب جماعة إسلامية أم مؤسسة دعوية رسمية أو غير رسمية، أو أفرد متفرّقون جمعهم الاستناد للدّين وأصوله، كمرجعيّة لرؤاهم وأطروحاتهم، لإدارة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثّقافية التي يحيونها، أو للتعاطي مع دوائر الهويّات القطرية أو الأممية أو دوائر الحركة الوظيفية التي يرتبطون بها ويتعاطون معها» (وسام، 2005).

وهو كذلك يعني «الرؤية الإسلامية الشاملة، انطلاقا من الكتاب والسنّة، لكافة مناحي الحياة، الثقافية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والإعلامية، خاصة وأنّ الإسلام قد اشتمل على حاجيات البشر المادية والرّوحية كلّها.. وبفضل هذه المواصفات عن الخطاب المسيحي واليهودي والعلماني والشيوعيّ..» (نخبة من الباحثين، 2006، ص490).

والخطاب الإسلامي بهذا يصبح أداة تواصلية سواء بين المسلم والمسلم، أو بين المسلم وغير المسلم، يؤدّي وظيفة توجيه الإنسان، ونشر الوعي، وتكوين بنيته الذهنية، والتعريف بحقيقة الإسلام بما يتيح نشره وإقناع الغير به، إنّه خطاب شامل يتوجّه نحو الفرد والمجتمع بكل تمثّلاته ومؤسساته، ويتناول القضايا الدّينية والأخلاقية، وشؤون الحياة الاجتماعية بتعدّد تنظيماتها، السياسية والاقتصادية، المحلية منها والعالمية، بهدف علاجها في إطار تعاليم شريعة الإسلام.

والخطاب الإسلامي كذلك كما يبدو، يرتكز على الأصول الشرعية في النظر الاستدلالي واستنباط الأحكام الفقهية التي يستدعيها الواقع المتجدّد، ويتضمّن مختلف أدوات وآليات تطوير العمل التواصلي، بمختلف صوره ومستوياته، وهو في منهجه هذا يراعي النظم المعرفية والاجتماعية السائدة، وكذلك العلوم الضرورية التي يمكن الاستفادة منها، والتي في مقدّمتها ما يتعلّق بفن الخطاب والتواصل، وما يحتويه من أسلوبية المعنى والدّلالة.

ثانيا: أهمية الخطاب الإسلامي المعاصر

ليس الخطاب الإسلامي مجرّد خطاب عفوي، أوردّة فعل وقتية عابرة، بقدر ما هو استجابة لظروف حياة واقعية، وتعبير عن حاجة الإنسان المسلم إلى تجديد ذاته وفكره وعقيدته الإيمانية، بما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يضمن له كينونته المستقلة، ويحفظ هويته في ظل الصّراع الحضاري الرّاهن، وجدلية الصّراع بين القيم المحليةّ والعالمية، وهنا تبرز الحاجة إلى هذا الخطاب وأهميته، والتي يمكن إجمالها في النقاط التالية:

أ- الخطاب الإسلامي المعاصر أداة معبرة عن التصوّر الإسلامي: فهو يعالج شؤون وقضايا الحياة الإنسانية، وكذلك آيات وظواهر الكون المعجزة، وهو بهذا يمثل مصدرا مُشكِّلا لعقل الإنسان المسلم، وما يحمله من أفكار، تترجم وعيه تجاه ذاته أو غيره (نخبة من الباحثين، 2006، ص171).

ب- الخطاب الإسلامي المعاصر آلية تواصلية تعريفية: فبفضل هذا الخطاب الموجّه نحو الطرف الآخر- سواء المسلم منه أو غير المسلم- يمكن التعريف الأفضل بحقيقة الإسلام وما يحمله من قيم إنسانية عالمية، والمساهمة في تثبيته في النفوس وإيصاله إلى الغير بطرق تسهّل فقهه والإقبال عليه، وفي الوقت نفسه تصحيح المفاهيم المغلوطة عنه، خصوصا وأن الغرب غير المسلم كثيرا ما ينظر إلى الإسلام من خلال بعض سلوكيات المسلمين، ويلفقون له تهما تشويهية مثل: الإرهاب والعنف والجمود وانتهاك الحقوق وغياب العدل فيه، وهنا تكون الحاجة الماسّة لخطاب إسلامي يتحلّى بالحكمة في ردّه وتعامله مع هذه المواقف والخطابات. وبفضله كذلك يطّلع الآخر غير المسلم على حقيقة الإسلام، والثقافة الإسلامية، وبقدر ما يكون هذا الخطاب أكثر وعيا بالواقع، وناجحا في فقهه به وعلاج مشكلاته، كلّما زاد تأثيره في النفوس، وتقوّت مبرّرات مشروعيته، واتسعت آفاقه.

ج- الخطاب الإسلامي المعاصر واقعي وسطي: ففي ظل الحملات المناهضة للإسلام، والخطابات الفكرية المتطرّفة التي كثيرا ما شوّهت صورة الإسلام، نجد أنفسنا بحاجة ماسّة، إلى خطاب إسلامي واقعي جديد معاصر، منفتح على الآخر، وسطي في طروحاته وحواراته والحلول التي يقترحها، ويهدف إلى رفع الحرج والأغلال والمفاسد عن البشرية جمعاء، والمسلمين تحديدا.

والخطاب الإسلامي المعاصر بفضل واقعيته ووسطيته التي هي من أهم ما تضمنته شريعة الإسلام من خصائص ومعالم، تزداد أهميّته في كونه حريصا على محاربة صور الفرقة بين المسلمين والسّعي إلى لمّ الشمل والتأليف بين القلوب، وهو بقدر ما يهدف إلى تعزيز قيم الهوية، فإنّه كذلك يدعو إلى تعزيز ثقافة الحوار مع الآخر وترسيخ أدبيات الاختلاف في الرأي، ونبذ صور العنف، ليكتسب بذلك صفة الخطاب الإنساني الرّصين الذي يمكن أن تحتمي بداخله وتتعايش كل الطوائف والمذاهب، وهو ما يجعله كذلك خطابا يساير ويتوافق مع مشاريع ثقافة العصر، مثل حوار الحضارات، وحوار الأديان والثقافات، وهو ما يمنحه المكانة للتعريف بجوهر الإسلام ونشر قيمه، وتأكيد أسبقية في خطابه الوسطي الدّاعي إلى التعايش والتّسامح.

والخطاب الإسلامي بوسطيته هذه، يحرص على تجسيد صور التفاعل المتوازن بين الثنائيات المتجادلة، بهدف التأسيس لحضارة جديدة تتوازن فيها القيم والمفاهيم المتعارضة والمتصارعة التي برزت في الفكر الإسلامي الرّاهن، وانقسمت وتجادلت بشأنها الخطابات والمذاهب الفكرية والعقائدية،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

توازن يبقيها على طابع هويتها الإسلامية، ويدمجها في الآن نفسه في قيم الحضارة المعاصرة، بهدف تكوين إنسان مسلم في هويته، عالمي في تفكيره وقيمه، والتجديد بهذا يبدو نابذا لفكر التعصّب بكلّ صوره، ويدعو إلى حوار التقارب والالتقاء، داعيا في ذلك من جهة إلى التمسك الصادق بالنص الدّيني وانتهاج منهج السلف الصالح في فهم الدّين، ومن جهة أخرى يدعو إلى الأخذ بوسائل تقدّم الحضارة الغربية بما يعود بالفائدة على المسلمين والإسلام.

د- الخطاب الإسلامي المعاصر فيه استشراف للمستقبل: فرغم أنه خطاب شديد الإلحاح على ضرورة التمسّك بالتّراث الحضاري وقيم الإسلام المنصوص عليها في الكتاب والسنّة، إلا أنّه في الوقت نفسه يدعو المسلم إلى عدم التقوقع على هذا الماضي والانكفاء على تراثه الحضاري، ويدعوه في الوقت نفسه إلى التطلّع نحو المستقبل واستشراف آفاقه؛ إنّه يهدف إلى تكوين إنسان مسلم يهتمّ بالمستقبل في ظلّ تسارع أنماط الحياة وما تشهده من ثورات علمية وفكرية وإلكترونية، وكذلك الثورة المعلوماتية، وكلّها فرضت نفسها على مستوى حياة النّاس، وهو ما يستدعي أن يكون المسلم طرفا فعّالا فيها ويتطلّع إلى مجاراتها، ففي ذلك تجسيد لمنطق الإسلام الذي يدعو إلى الاهتمام بالمستقبل القريب والبعيد، محليا وعالميا، وتهيئة النّفوس لأخذ العبر من الماضي، وإعادة ترتيب البيوت والاتجاه نحو بناء الغد الأفضل (القرضاوي، 2004، ص134).

وما يزيد من أهمية الحاجة إلى هذا الخطاب الإسلامي المستشرف للمستقبل، هو تجاوزه للخطابات الفكرية الإسلامية السابقة التي استدعتها ظروف وسياقات تاريخية محدّدة آنذاك، والابتعاد عن اجترارها، مع الاستفادة من جوانب القوّة فيها؛ فإذا كان هذا الخطاب الإسلامي في الماضي القريب ومع بروز أزمة النهضة العربية والإسلامية، خطاب مجابهة وتصدّ للتيارات الفكرية الأخرى مثل القومية والماركسية والليبرالية وغيرها.. فإن واقع اليوم وآفاق المستقبل لم تعد تستدعي مثل هذه المجابهة التي يبدو أنها لم تعد تجدي نفعا، بل إنّ الخطاب الإسلامي المعاصر لا يجد أيّ مبرّر للمواجهة مع الحركات القوميّة ذات التوجّه العلماني، فهو يقبل التنوّع الحضاري داخل إطار الوحدة الإسلامية العالمية، ويدرك أهمية التحالف معها لمواجهة الامبريالية العالمية، والنظام العالمي الجديد (المسيري، 1998، ص64).

وإذا كان هذا الخطاب الإسلامي في الماضي منشغلا بالتأسيس لمنظومة حياة إسلامية خالصة في الأسرة والاقتصاد والسياسية والثقافة.. فإنّ الأمر حاضرا لم يعد حاله نفسه كما في الماضي، فقد ارتقى المجتمع الإسلامي في تطلّعاته، وأصبح يهتم بمستقبل أفضل يتفاعل فيه الأصيل المشرق من التّراث بالمعاصر المنير من قيم الحداثة، وهنا تتجلّى مكانة وقيمة الخطاب الإسلامي المعاصر، الذي يبصّر المسلم بحقيقة وجوده، وكيفية بناء مستقبله بناء متوازنا.

هـ- الخطاب الإسلامي المعاصر ينادي بالاجتهاد في فهم الشريعة: فعصرنا الحاضر بمختلف ميادينه وتمظهرات شؤون الحياة فيه، والتي بدورها تخضع لسنّة التّغيّر والتبدّل، أصبح أكثر حاجة إلى اجتهاد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فقهي جديد لاستنباط أحكام تشريعية جديدة تسايره، وهنا تبرز الحاجة الملحّة إلى هذا الخطاب الإسلامي، من حيث هو خطاب داع إلى الاجتهاد، ويتبناه كمنهج في بناء المشروع الحضاري الجديد، الذي بفضله تتحقّق الصّلاحية الدّائمة للشّريعة، وتكون لها مشروعية الدّعوة إلى إحيائها وتطبيقها، باعتبارها وصفة علاجية لكلّ للمشكلات المستجدّة، وفي الوقت ذاته يصبح هذا الخطاب الإسلامي بمثابة ردّ على أولئك الذين يسدّون باب الاجتهاد، ويطوّعون الفقه لخدمة الأمراء، رغم أنّه كان دائم الحضور، ومشرقٌ نوره عبر مختلف العصور، وعمل به أئمّة مذاهب الإسلام، وحضارات بلاده أثناء الفتوحات الإسلامية (القرضاوي، 2004، ص148).

و- الخطاب الإسلامي تقييمي تجديدي: فهو يعمل على تنقية المنظومة الحضارية من الموروث السلبي المُعطِّل عن التحرر والتطلّع نحو آفاق حضارية مستقبلية؛ إنه بمثابة تلك الحركة الفكرية الحضارية الإصلاحية، المؤسسة على المراجعة النقدية التقييمية لكل مظاهر الحياة الحضارية، من سلوكية وأخلاقية وتربوية ومعرفية، وغيرها من صور الثقافة الاجتماعية، والهادفة إلى التّطوير المستمر للوعي الاجتماعي بما يضمن انفتاحا متوازنا على ثقافات الحضارات الإنسانية، وترقية أدائه الحضاري حتى يكون أكثر انسجاما مع تحديات الحضارة العالمية، والمستجدات والنوازل التي أصبحت تتوالى على واقع الحضارة الإسلامية وتستدعي حلولا علاجية اجتهادية، وتجديد مناهج وآليات الفهم والعلاج بما يضمن اندماجا سليما في حضارة.

لقد أصبح الخطاب الإسلامي مطلبا حضاريا ملحّا، في مسائل تجديد الفقه الإسلامي، فهذا الأخير وحتى يتمكن من التصدي لمستجدات العصور وتسارع أحداثها وتغيرها، لا بدّ له من إعادة النظر في وسائل وآليات التحصيل المعرفي، وبناء الأحكام التشريعية الجديدة، التي بإمكانها مسايرة ظروف وحاجيات الأمة في العصر الحالي، والتي ليست نفسها ما كانت عليه في السابق؛ والثابت هنا، أن تطوّر وسائل البحث والمعرفة سيفضي إلى نتائج أفضل وأكثر دقة، وبإمكانها تذليل العوائق، ورفع المشقّة عن الأمّة، وبفضل هذه الوسائل وآليات البحث تسهل عملية الاستفادة في وضع الأحكام المناسبة للقضايا المطروحة التي تحتاج إلى ضبط ودقّة، دون عناء البحث وتضييع أكبر للوقت (حسنة، 1998، ص37) ، ومثل هذه القضايا تشكّل جوهر الخطاب الإسلامي المعاصر الذي يسعى إلى الإحاطة بانشغالات وهموم الإنسان المسلم، والاجتهاد في إيجاد سبل العلاج الممكنة، لتمكينه من الاندماج في حياة المعاصرة على أسس هويته العقائدية.

ثالثا: تحديات الخطاب الإسلامي المعاصر:

رغم أهمية الخطاب الإسلامي المعاصر القاصد إلى الإحاطة بشؤون الأمة، ونوازل العصر، إلا أنّه واجه ولا يزال يواجه جملة من التحديات، في سعيه إلى إيصال أفكاره إلى الغير، والمساهمة في التعريف بحقيقة رسالة الإسلام ونشرها على أوسع نطاق ممكن، ويمكن إجمالا قراءة أهم هذه التحديات بردها إلى مستويين هما:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أولا: التحديات الداخلية

1- الأمية والتخلّف:

إن نجاح خطابات التغيير يحتاج إلى انتشار الوعي الفكري والحضاري لدى الشعوب، وكذلك توفر حركية علمية بإمكانها الدّفع بعجلة التنمية والتطلع نحو مستقبل زاهر، وهذا ما يوفر سلاسة في ولوج هذه الخطابات إلى داخل كل الشرائح الاجتماعية، ومثل هذه الحقائق تضمنتها رسالة الإسلام، التي دعت إلى الاستنارة بنور العلم، ومحاربة صور الجهل والأمية، لقد كان الخطاب القرآني داعيا إلى التزوّد بالمعرفة في عديد نصوصه، بل إن أوّل الآيات التي نزلت أمرت بالقراءة ودعت إلى معرفة آيات الله في خلقه ﴿اقرأ بسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علّم الإنسان ما لم يعلم﴾ (العلق، الآية 1- 3). ورفع الله تعالى من مكانة ورفعة العلم والعلماء ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ (الزمر، الآية9)، وكذلك جاء في السنة النبوية دعوات إلى العلم والرفع من قيمته فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم ﴿من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله له طريقا إلى الجنّة﴾ (الترمذي، 2015، ص519)، وفي المأثور التاريخي أنه عليه الصلاة والسلام بعد نهاية معركة بدر، دعا الأسرى من قريش في مقابل إطلاق سراحهم، إلى أن يعلم المتعلم منهم القراءة والكتابة لبعض من كان أميا من المسلمين..

إن مثل هذه النصوص الدينية والوقائع التاريخية في حضارة الإسلام تبرز مكانة العلم والتعلم في صناعة الحضارة، وهو ما أدركته حضارة الغرب التي تمكنت من تجاوز ظلامية مرحلة سلطة الكنيسة، ودعت إلى حضارة العقل والعلم ومحاربة الفكر الكهنوتي الذي تسبب في تفشي التخلف، وانتشار الأمية، وبفضل هذا الخطاب الفكري الجديد ارتقت حضارة الغرب وتطورت، وتمكنت من صناعة منظومة قيم إنسانية جديدة أعادت للمواطن فيها كرامته.

لقد جعل الإسلام العلم فريضة لها مقامها، فهو الطريق للبناء الحضاري وإعمار الكون، ولم يكن أبدا يعارضه، أو يقف في طريق التقدم العلمي طالما أن في العلم مصلحة للإنسان، خصوصا إذا أحيط بسياج القيم الأخلاقية التي تبعد عنه صور الاستغلال والخراب، وأسهم في المقابل في الارتقاء بالإنسان نحو الإيمان بقدرة الخالق، ليكون بهذا دعما للحقائق الدّينية وليس الأمر كما يدعي البعض الذي يريد أن يفصل بين الدين والعلم، بحجة أن العلم هو ثمرة النظر العقلي الذي يتعارض مع الدّليل الدّيني، وحقائقه التي يطمئن لها القلب (عبده، 1988، ص185).

إلا أن الواقع الراهن للأوطان الإسلامية، تشير الكثير من الإحصائيات فيه إلى نسب عالية من الأمية، التي عادة ما يكون سببها مخلّفات مرحلة الاستعمار، وانتشار الفقر، وفشل المنظومة التعليمية، هذه الأمية بمختلف صورها، تعيق بالتأكيد فرص نجاح خطابات التجديد وأشكال الإصلاح الذي تسعى إليه خطابات الفكر الإسلامي. ويبدو أن الاستعمار الغربي مدرك تمام الإدراك هذه الحقيقة، فلا يكاد يستقر في وطن إلا ويبادر بتخريب المنظومة الفكرية والعلمية السائدة، ويحارب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الثقافة المحلية، ويعمل عل نشر الجهل والأمية، أو يعمل على زرع ثقافته وتنشئة أجيال تابعة منقادة لها، وهو ما يراهن عليه المستعمر لتكون صمّام أمان لاستمرارية تواجده، والتصدي لخطابات التغيير والتجديد الحضاري الداعية إلى صناعة الشخصية الذاتية المستقلة.

ولما كانت الحضارة تقوم على العلم، فلا غرابة أن نجد التخلف قد ضرب بجذوره وتأصل في مختلف الميادين والقطاعات الحضارية في بلاد المسلمين، فالتخلف العلمي وانتشار الأمية انعكس سلبا على مستوى النماء والرقي الحضاري، وتوقفت عجلة التغيير نحو الأفضل، ولعل ما تعيشه هذه البلدان من صور صراع المصالح الضيّقة فيما بينها، في مقابل اتجاه العالم الغربي نحو بناء تكتلات قوية لحماية ذاتها والصمود في وجه العدوّ، لدليل على حالة التخلف الفكري والحضاري الذي تعيشه وتتخبط فيه، وعجزت عن تجسيد مشاريع العلاج الناجحة التي بإمكانها تحقيق الوحدة والاستقواء بها، وأصبحت مجرّد بلدان مستهلكة لمنتوج الحضارة الغربية ماديا كان أو ثقافيا وفكريا، فالأمة التي لا تنتج ليس أمامها إلا الاستهلاك والتبعية.

ورغم أن معظم البلدان الإسلامية تمتلك ثروات طبيعية هائلة، وكذلك تمتلك ثروة بشرية قادرة على تحقيق الريادة والتفوّق، إلا أن غياب منظومة تخطيطية فعالة، وإرادة تغييرية صادقة، جعلها مجرّد ثروة مكدّسة، لم تستغل في إحداث الوثبة الحضارية، وتحويلها إلى قطب حضاري مصدّر للثروة، ومنتج لثقافة حضارية تنافس حضارات الغير المتقدمة، وبقيت تعاني من صور التخلّف والتبعية، التي أنهكت وأفشلت كل مشاريع النهضة الإسلامية، لأن مشاريع النهضة والتجديد الحضاري تتطلب لنجاحها تحرّر واستقلالية الذات الحضارية، وبناء ذاتها بعيدا عن إملاءات الغير وتوجيهاته، وهو ما عجز عن تحقيقه العالم الإسلامي الذي يظل معتمدا في توفير أغلب حاجياته، وتسيير شؤونه، بل وحتى ضمان استقراره، على العالم الغربي الذي يمارس عليه ضغوطات رهيبة تمس حتى بقيم هويته، ويبقيه رهين قراراته ومواقفه، خصوصا وأنه يملك قوة التحكم في مراكز وآليات تسيير المنظومة الاقتصادية التي تعتبر القلب النابض للدول، والمساعد على استقرارها(حجاب، 2004، ص112).

هذا التخلّف الذي استفحل في العالم الإسلامي، يحاول المتربصون به ربطه بالإسلام نفسه، زارعين بذلك فكرة عجز الإسلام بمختلف قيمه وما احتواه من أطر وقواعد تنظيمية، عن مواكبة رهانات حضارة العصر، وتلفيق تهمة تخلف الإسلام وتاريخانية تشريعاته، التي تقيد حريات التفكير والإبداع، وتحبس التفكير في غياهب الماضي الذي لم تعد أمجاده تنفع لحضارة العصر الجديد، فخصوم الإسلام لا يتوقفون عن محاربة الإسلام الذي بزعمهم هو من أسهم في تخلف المسلمين ومنعهم من التحرر من الماضي الحضاري الذي كان في مرحلة ما رمزا للمجد الحضاري، غير أن إشعاعه وعطاءه الحضاري توقف ولم يعد قادرا على مواكبة تحوّلات ورهانات العصر، وكل هذا يشكّل تحديا صعبا أمام الخطاب الفكري الإسلامي، يتطلب مواجهة هذه التلفيقات الخاطئة، والنجاح في إبراز الصورة الحقيقية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

للإسلام، والعمل على تجديد المفاهيم القيمية للإسلام والتعريف بها للغير، وتصحيح تلك الصورة النمطية التي ارتسمت في أذهان الغرب خصوصا.

2- **الخلافات الفقهية:**

الملاحظ في البلدان الإسلامية أنها لا تكاد تستقر في منظومتها الفقهية على مرجعية دينية أو مذهب فقهي واحد، ورغم أن الاختلافات الفقهية تعكس الحالة الصحية للاجتهاد الفقهي، الذي تحتاج إليه الأمة الإسلامية لتجديد فكرها ومواكبة رهانات العصر، إلا أن هذه الاختلافات كثيرا ما زاغت عن السكة التي ينبغي أن تسلكها، والمحطة التي يجب أن تصل إليها، وهي محطة توحيد الأمة والإحاطة بعناصر التشتت واحتوائها في صورة تشريعات فقهية تقرب الرؤى الفقهية وتنبذ صور الفرقة، فأصبحت تخوض في مسائل استشكالية جزئية، تولّدت عنها جدالات وصراعات فكرية عقيمة، استنزفت جهود حركات الإصلاح وخطابات التجديد، التي بدل أن تتوجه نحو مسارات البناء وإرساء أسس النهضة، وكذلك فهم البناء الحضاري للغرب بهدف استثمار مواطن القوة فيها، انشغلت بدل هذا بالبحث والتنازع في تلك الجزئيات الفقهية التي لا تجدي نفعا ملموسا تنتفع به الأمة قاطبة، بل إن بعض هذه الحركات الفكرية لفّها لغة التعصّب في خطاباتها، وراحت تتشدق بالتراث الفقهي رافضة صور الاجتهاد الداعية إلى تشريعات جديدة تلائم نوازل العصر، منادية في الوقت نفسه بالتشبث بتراث الماضي وتكييف الحاضر معه، هذا التعصب أنتج في المقابل خطابا مضادا يدعوا إلى تجاوز الموروث والانغماس في الحداثة والمعاصرة.

إن مثل هذه الخلافات الفكرية والفقهية تعدّى وقعها إلى مجموع الأمة الإسلامية، التي اتسعت فيها صور الفرقة، وتراشق التهم، بل وحتى بلوغها حد الطعن في عقيدة الشخص من جهة، وفي الجهة المقابلة إلصاق تهم التخلف بالآخر، وقد توسعت هذه الاختلافات لتغزو قطاعات واسعة من المجتمع، وتصبح ثقافة التعايش والتسامح تكاد تختفي بعد أن كانت من أصول الحياة فيها.

هذا الاختلاف المذهبي ليست المشكلة فيه تكمن في تعدّد المذاهب، التي كان الهدف من بروزها إنما هو السّعي إلى تقريب الرؤى حول المسائل التي وقع الاختلاف في فهمها من القرآن والسنة النبوية الشريفة، وتبصير عامة الناس بها مراعية ظروف وأحوال الناس؛ وإنما المشكلة تكمن في أتباع تلك المذاهب، التي تحولت بسبب أفكارهم وغلوّ نهجهم وخطابهم الدّعوي إلى منبع للفرقة والخلاف داخل الأمة، وحينها تشتت الصّفوف، وتلاشت أواصر اللّحمة والتآزر بين أتباع المذاهب، وكلها صور كان أعداء الإسلام يتمنّون حدوثها حتّى يسهل اختراقه ودسّ السّموم بين معتنقيه، لأنه مدرك تمام الإدراك أن قوة المسلمين في وحدتهم وتآزرهم ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكمالآية4﴾ (الأنفال، الآية6).

ومثل هذه الخلافات المذهبية لم تكن حاضرة في حضارة الإسلام في مراحل نقائه الأولى، فقد كانت حضارة تحتضن كل الأديان دون أن تضيق بها ذرعا، فلم يكن يفصل أو يفضّل بين رسالات الأنبياء، ﴿قولوا آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وما أوتي موسى وعيسى وما أتي النبيّون من ربّهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ (البقرة، الآية136) وكذلك لم تشهد تعصبا مذهبيا لرأي أو مذهب على حساب آخر، لأن التسامح كان عنوان رسالة الإسلام، ولم يكن يكره الناس على الاعتقاد، داعيا في الوقت نفسه إلى احترام عقائد الغير وأماكن عبادته، وأن يستغلّ هذا الاختلاف في التعاون على فعل الخير ونبذ أشكال الفرقة الهدآمة (السباعي، 1999، ص129-130).

3- مسألة الأقليات:

كانت من أولى اهتمامات الإسلام ومع بدايات نزول الوحي، أن عمل على الانتقال بالإنسانية من مستوى حياة الكراهية والعصبية القبلية، إلى مستوى حياة التسامح وعدالة المساواة في الخضوع للتشريعات الربانية، وحينها لم تعد هناك مكانة للتفاضل بين الأعراق والقبائل، فكلها من طينة واحدة هي الأصل البشري، وليس الاختلاف في الأجناس والبلدان إلاّ سنة ربانية قصدها التعاون والتعارف، وليس التباهي والتفاخر بالتميز الانتمائي(السباعي، د ت، ص95-96).

لقد أصبحت مسألة الأقليات في العالم الإسلامي عموما، مشكلة مؤرقة، خصوصا مع غياب سبل العلاج الناجعة أو تغييبها واستهوان الأمر، في مقابل استغلال القوى الاستعمارية للأمر، للتأثير والتدخل في الشؤون الداخلية له، إذ أصبحت تعتمد على فكرة الأقليات لتحقيق مخططاتها، وكثيرا ما تختفي وراء ورقة الأقليات وما يرتبط بها من حقوق لفرض مشاريعها، وتجسيد أطماعها واستراتيجياتها.

ولأن هذه القوى الاستعمارية دائمة التربص بالأوطان، فقد لجأت إلى أسلوب يبدو أكثر ذكاء وفعالية وإنتاجا، يتمثل في إذكاء نار الفتن بين الطوائف والأقليات، كسلاح مزلزل ومروّع للأوطان خصوصا الإسلامية، التي انهار بعضها وانقسم وضعف الآخر بسبب مشكلة الأقليات.

ولعل بتأملنا لواقع الدول الإسلامية، نجدها تتضمن أقليات مختلفة منها النائمة ومنها النشطة، منها ما هو متجذّر في صلبها، ومنها ما هو حديث النشأة، كان للمستعمر الغربي يد في تشكّلها لتحقيق أهداف مستقبلية تبقي حضوره فيها.

وقد سعت العديد من الجمعيات الغربية وعلى رأسها خصوصا اليهودية وكذلك الجمعيات الإستشراقية، إلى إنشاء القوميات وإذكاء روح الشعوبية داخل العالم الإسلامي بهدف تفكيك وحدته، وزرع الفرقة بين المسلمين وحتى سلخهم عن عقيدتهم، وتصبح بلدانهم مفككة ضعيفة، فأنشئوا الفرعونية بمصر، والبربرية بالمغرب، والآشورية في العراق، والفينيقية في لبنان، وراحت من خلال نشاطاتها المختلفة تمارس حقدها الدفين بأساليب مختلفة تبرز مزايا الأجناس بعضها عن بعض، وتستشهد بهتانا وتزويرا للحقيقة بآيات القرآن الكريم والسنة النبوية، وكذلك بشعر العرب الذي فيه مدح وتمجيد للانتماء(سرى، 2006، ص100)، فقد قامت مجلة المشرق مثلا بحملة إعلامية لتشويه الحركات الإسلامية، ودعت من خلال صفحاتها إلى إحياء القوميات في العالم الإسلامي، ورسم صورة مشوّهة عن الإسلام ونشر الأفكار الفاسدة لزرعها في أذهان الشباب المسلم(سرى، 2006، ص88). كما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عمدت الحملات الاستشراقية في مختلف الأقطار الإسلامية إلى إيقاظ النعرات القبلية والقومية التي كانت قبل الإسلام، وإثارة الخلافات بين شعوبها، والاجتهاد في منع انعقاد الاجتماعات بينها بهدف لم الشمل، ووحدة الكلمة، وإرساء صفوف الدعوة إلى الخير (السباعي، د ت، ص31).

ونحن نلاحظ كيف «أن قوى الهيمنة الغربية تريد أن تجعل من هذه الأقليات أوراق ضغط، وثغرات اختراق وتدخل لإعاقة تقدم الأمة ... وذلك من خلال المخططات الاستعمارية المعلنة لتفتيت الأمة وتحويل كياناتها القطرية إلى كيانات ورقية وفسيفسائية، بواسطة الأقليات الدينية والمذهبية والقومية»(عمارة، 2003، ص32) وقد أدركت الحركات الاستعمارية، والصهيونية، أثر الأقليات في تحقيق الاستراتيجيات المختلفة منذ بدايات القرن الماضي.

4 تعدّد خطابات الفكر الإسلامي:

في سعيه إلى تجاوز مظاهر التراجع الحضاري، وكذلك مجابهة مختلف التحديات، برزت في ساحة الفكر الإسلامي خطابات فكرية ودينية متعدّدة، ومتباينة في طروحاتها ومناهجها، يمكن اعتبارها تحديا إشكاليا آخر أثقل كاهل الخطاب الإسلامي، وأسهم في استمرار حالة الشرخ بين تياراته، وصعوبة تحقيق الإجماع أو الرؤية المتقاربة التي بإمكانها توحيد الأمة، ويمكن حوصلة هذه الخطابات إجمالا في خطابات ثلاثة هي:

1.4 خطاب الفكر التغريبي:

وهو ذلك الخطاب الذي حاول أن يضفي على الأمة العربية والإسلامية نوعا من التفتح على حضارة الغرب الحديثة، والدّعوة إلى إصلاح الفكر الإسلامي وفق نموذج الإصلاح والتحديث الغربي في مجالات التربية والتعليم ومختلف المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدّينية، وقد تبلورت بواكير هذا التيار الفكري باحتكاك المجتمع العربي بالحضارة الغربية، خصوصا مع الحملة الفرنسية على مصر، وهي الحملة التي أنهت حالة العزلة بين العرب والغرب، وأحدثت تفاعلا بين الثقافة العربية والثقافة الغربية، وأطلعت العرب على معالم النهضة الأوروبية (الزيدي، 2000، ص92)، فقد تولد شعور الانبهار والإعجاب في نفوس الكثير من رجال الفكر العربي والإسلامي، إلى درجة ظهور طبقة من نخبة أهل الفكر بمختلف ميادينه، تبنت خطاب الدّعوة إلى سلك مسلك تلك الحضارة الوافدة، والاندماج فيها، اقتناعا بأن في ذلك المخرج الوحيد لتحقيق النهضة الحضارية (المحافظة، 1983، ص62).

إنّ الحضارة الغربية بما تحمله من قيم، هي بالنسبة لهذه النخب الفكرية مرجعية ومنطلق النهضة الفكرية، وليس لتجديد الفكر أمل في النجاح إن هو جانب هذه الحضارة التي تمثل مرجعية للخطاب الفكري البناء، والمخرج الآمن للأمة العربية والإسلامية الباحثة عن مكانة إلى جانب الأمم الأخرى المتقدمة، وليس يرى هذا التيار الفكري المقلّد للغرب باختلاف مستويات هذا التقليد، حرجا في الدعوة إلى جعل الغرب نموذجا ومرجعية لتجديد الفكر العربي والإسلامي، لأن المسألة هي مسألة كيفية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النهوض وتجاوز مرحلة التخلف والانحطاط، ولما كانت حضارة الغرب كفيلة بأن تمدّنا بما نحتاج إليه في رسم معالم نهضتنا، وتغيير الواقع نحو الأفضل، خصوصا وأنها حضارة مؤسسة على العقل والعلم، فلا مناص إذن من الاقتباس منها ولا جدوى من معاداتها لأن قيمها مغرية ومثمرة وتساعد فعلا على تحقيق الوثبة الحضارية المأمولة.

2.4 خطاب الفكر السلفي:

وهو خطاب انشغل كذلك بمسألة النهضة والبحث عن سبل إعادة مجد حضارة الإسلام، كان شديد الدعوة إلى التمسك بقيم التراث الإسلامي، ناقم على قيم الغرب الوافدة، ويرفض كل الخطابات الفكرية التي تحاول إخراجه عنه، ويشهرون سيف العداء لها ومقاومة كل المحاولات التي لا تسير في اتجاهه (العلواني، 1994، ص62).

ويمكن القول أن هذا التيار الفكري وبالنظر إلى خطابه الداعي إلى مقاومة قيم حضارة الغرب الوافدة، وكذلك التصدي للخطابات الداعية إلى التفتّح على هذه الحضارة، كان شديد الانفعال بالظروف السائدة، وكانت لغة المقاومة تزداد حدّة وعدائية كلما تعالت الخطابات الداعية إلى تقليد النموذج الغربي، وتبني مشروع علمانية الدولة، حتى أنه كان ينظر إلى حضارة الغرب تلك على أنها حضارة جاهلية مشابهة لتلك الجاهلية التي عاصرها الإسلام، فكانت دعوته إلى التمسك بماضي الأمة، بما فيه تراثها النصي وانجازات السلف، بل إن نخبة من السلفيين المتأخرين أمثال: محمد رشيد رضا(1935/1865)، والمودودي(1979/1903)، وحسن البنا(1949/1906)، وسيد قطب(1966/1906) رفضوا فكرة التوفيق بين قيم ومنجزات حضارة الغرب، وما يزخر به تراث الإسلام من نجاحات، فحضارة الغرب المعاصرة بعلومها وتقنيتها هي حضارة جاهلية جديدة (عبد اللطيف، 1992، ص34).

وعن هذه الحضارة الجاهلية يتحدث المفكر الإسلامي سيد قطب في عديد مؤلفاته، فيصفها بصورة قاتمة وممقوتة، في كل ما احتوته من أفكار وعقائد وثقافات، فهي تشجع وتعمل بكل الطرق على تحريف المسار الصحيح للنهج الإسلامي السوي ومقاصد رسالة الإسلام، وزرع قيم متنافية معها، فليس في تلك الحضارة إذن ما يستحق الالتقاء به والاقتباس منه، وإذا حصل أمر هذا الالتقاء حصلت معه صور الانحراف عن الطريق الصواب والمنهج القويم (قطب، 1979، ص17-18). وقد ذهب إلى أبعد من هذا فوصف الحكم السائد حاليا في العالم بأنه حكم بشر طواغيت، يناقض الحكم الإلهي ويعاديه، ولن يستقيم شأن المسلمين إلاّ بمناقضة قيم الجاهلية وإعادة حكم الله إلى الأرض، وهي المهمة التي ينبغي أن تقوم بها فئة مؤمنة تخلص العمل لله وتعتزل قيم الجاهلية مستبدلة إيّاها بقيم الشريعة الربانية وحدها (الحديدي، 1979، ص17-19).

وبالنظر إلى الخطر المحدق الذي أصبح يتربّص بالأمة الإسلامية اليوم وهو غزو الحضارة الغربية، الغريبة ثقافتها وقيمها عن هويتنا وخصوصيتنا، فقد أضحى من الضرورة الملحة على المسلمين وهم يتطلعون إلى النهضة والتقدم، وبدل ركوب أمواج حضارة الغرب، أن يعملوا على العودة إلى تراثنا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأصيل والاقتداء بما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم، في أقواله وأفعاله والسير على خطى صحابته رضوان الله عليهم، مقلدين إياهم كذلك (الناصر، 2001، ص197).

3.4 خطاب الوسطية الإسلامية: إن الصراع الفكري بين الخطابين السابقين أسهم في بروز خطاب فكري ثالث اتخذ من محاولة التوفيق بين قيم التراث وقيم حضارة الغرب، نموذجا لنهضة عربية إسلامية متميزة، إنه تيار فكري مرتبط بتلك الحركة الإصلاحية التي دشنها جمال الدين الأفغاني ثم محمد عبده؛ حركة حاولت أن توجد نموذجا ثقافيا وسياسيا مستقلا قادرا على الجمع بين أصول وأساسيات الدين الإسلامي، وفي الوقت نفسه القدرة على مواكبة تطورات ومنجزات حضارة الغرب، حركة تسعى إلى التوفيق بين التراث والحداثة (علي، 1996، ص26).

هذا التيار التوفيقي الممثل للوسطية الإسلامية زرع بذوره الأولى رجل الإصلاح الديني والفكري جمال الدين الأفغاني، حينما أدرك أن ضعف الدول الإسلامية مرده الجهل والفساد الذين تفشيا في ميادين حياتها، كما أن الإسلام عنده لا يعني عبادة الله وفقط، بل هو كذلك عمل على بناء حضارة مدنية مزدهرة.

وقد كان من تلامذة الأفغاني الذين حملوا لواء تيار الوسطية الإسلامية، الشيخ محمد عبده الذي كرس جهده لتقريب الدين من الجيل الجديد والدعوة إلى الموافقة بين الإسلام وما حملته الحياة المعاصرة، بل لقد حرص على تقديم تفسير للفقه الإسلامي وأحكام الشريعة يستجيب لمطالب الحياة المعاصرة، وانشغالات الجيل الجديد من هذه الأمة (الندوي، 1968، ص123)، باعتماد خطاب التجديد المؤسس على الاجتهاد والعقلانية، والذي بفضله يمكن العودة إلى جوهر الذات، واستلهام قسماته المشرقة وإزالة الشبهات عن أصول ومقاصد الدين، وتفعيل كل ذلك مع حضارة العصر، حتى يحصل الاتساق والامتداد السليم بين حاضر الأمة وقسمات تراثها الأصيلة.

ثانيا: التحديات الخارجية:

1- **الاستشراق:** يعرف الاستشراق بأنه عملية ينتهجها الباحث غير العربي ويتجه بها نحو دراسة العالم العربي والإسلامي، في أحواله وآدابه وعلومه وتاريخه وثقافته عموما، بهدف معرفة وكشف حقائقها،(المحجوبي، 2010، ص16)، وتعد الكثير من الدراسات الاستشراقية، واقعة تحت تأثير مراكز دراسات غربية معادية للإسلام، وموظفة لتحقيق أهداف محددة سلفا تخدم توجهاتهم وأغراضهم الإيديولوجية (المحجوبي، 2010، ص96).

والسؤال المطروح هنا: ما الذي يدفع بالغرب إلى الاهتمام بالعالم الإسلامي، وبذل جهود حثيثة في دراسة جوانب حضارته وعقيدته، بدل استثمارها في التنمية العملية الداخلية والسير بحضارته نحو الأفضل محليا وإقليميا؟(زقزوق، 1989، ص84).

كثيرا ما كان الدافع هو تشويه صورة الإسلام، أمام الغرب حتى ينفروا شعوبهم من اعتناقه، وفي الوقت نفسه حماية النصارى من خطر الإسلام كما يزعمون، متبعين في ذلك أسلوب حجب حقيقة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رسالة الإسلام، في مقابل تزويدهم بمعلومات مشوّهة تتضمن نقائص الإسلام، وتبرز ما فيه من مزايا على أنها مستوحاة من النصرانية واليهودية(زقزوق، 1989، ص86)، وكذلك تشكيك معتنقيه في قيم الإسلام ورسالته، وكل هذا لإلهاء علماء الإسلام بالدفاع عن عقيدتهم وعدم الخوض في الرد على غيرهم من العقائد المنحرفة ونقد كتبهم؛ فلما انتاب الغرب شعور بالخوف من سرعة انتشار الإسلام بسبب قيمه الإنسانية، عمل على دراسة الإسلام والمجتمع الإسلامي لمعرفة وفهم طبيعة تركيبته، حتى يتسنى له زعزعة استقراره وزرع البلبلة في عقيدته(سرى، 2006، ص88)، فهو يسعى من خلال معرفة التناقضات القومية والطائفية الحاصلة في العالم الإسلامي إلى التحكّم في مسار شعوبه، وتوجيه أحداثه، برسم المعالم ووضع الخطط المتحكمة في حركيته، حتى يسهل عليه بسط القبضة عليه، والإمساك بمفاتيح الأسرار التي يمكن اعتمادها في تفجير الأوضاع بداخل بلدانه متى استدعت الحاجة ذلك(النبهان، 2012، ص14). وقد كانت من أذرع العمل الاستشراقي في تشويه صورة الإسلام، إنشاء العديد من المجلات والصحف التي تعنى بشؤون العالم الإسلامي والتي يناهز عددها 300 مجلة موجهة ضدّ الإسلام، ومن أخطرها نذكر: مجلة الشرق الأوسط، ومجلة العالم الإسلامي، ومجلة شؤون الشرق الأوسط، ومجلة تاريخ الأديان، ومجلة الدراسات الإسلامية، ومجلة الإسلام، ومجلة المشرق(سرى، 2006، ص81، 82). كما يعتبر إنشاء موسوعة دائرة المعارف الإسلامية التي تصدر بعدة لغات، والتي يشرف على تسييرها وتحرير مضامينها كبار المستشرقين وأشدهم عداء للإسلام، من أخطر المؤلفات المعرفية التي تتناول الشؤون الإسلامية، لما فيها من أباطيل وتشويه للحقائق المتعلّقة بالإسلام، ورغم ذلك تعتبر من أهم المرجعيات المعرفية للعديد من المثقفين في المجتمع الإسلامي(السباعي، د ت، ص36). وبالإضافة إلى جملة المجلات وتأليف الكتب وإلقاء المحاضرات التبشيرية في مختلف الجامعات والجمعيات العالمية، اعتمد النشاط التبشيري على خطط الإرساليات التبشيرية إلى العالم الإسلامي في صورة نشاطات وأعمال إنسانية، مثل بناء المستشفيات، والمدارس التعليمية، وإنشاء الملاجئ ومراكز حماية الأيتام، وجمعيات تبادل الضيافة(السباعي، د ت، ص34). وكلها تهدف إلى التبشير بالقيم الإنسانية المسيحية، وإظهار سماحتها في مقابل رسم صورة قاتمة عن الإسلام بإبرازه على أنّه عاجز وغير مكترث بقيم المعاملات الإنسانية، وأنّه دين انتشر بفضل لغة العنف وإرغام الناس على إعتناقه.

كما تهدف حملات الاستشراق إلى زرع الشكوك عند المسلمين في كل ما يمس عقيدتهم ومصادر شريعتهم النصيّة والاجتهادية، وكذلك زرع الشكوك في تراثهم الحضاري، من خلال الترويج لفكرة الأصل الروماني لحضارة الإسلام التي لم تكن بزعمهم إلاّ مجرّد ناقلة لفلسفة الرومان، ولم يكن لديهم إبداع فكري أو تميز حضاري، والغاية من هذا إضعاف روح الانتماء لحضارة الإسلام وثقة المسلمين بتراثهم، حتى يسهل على الاستعمار نشر ثقافته، وإرساء دعائم وجوده واستمرار نفوذه(السباعي، د ت، ص30-31).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2- **الغزو الثقافي:** هو واحد من أهم المخاطر التي تواجه الأمة الإسلامية، كونه يتوجه مباشرة نحو زعزعة هوية الأمة وسلخها عن مقوّماتها التراثية التي تؤسس لتميزها الحضاري، فالغرب الحداثي ومن خلال مختلف مؤسساته ومنظماته الدّولية تسعى لنشر ثقافة بديلة في المجتمعات الإسلامية تجذب إليها خصوصا فئة الشباب، وتعمل على تحريف قيمه الدينية والثقافية والتشكيك فيها وفي مدى فاعليتها في ظل ثقافة المعاصرة العالمية، هذا الغزو الثقافي الذي ينتهجه الاستعمار الغربي ليس إلا آلية للهجوم على العالم الإسلامي، فالغرب الاستعماري ليس يطمع فقط في مغانم خيرات الدول الإسلامية، وإنما كذلك يحمل خططا لمحو شخصيتها وتغيير ملامح عقيدتها وتركيبتها الاجتماعية ومنظومتها التربوية والتعليمية، وكذلك شؤون تنظيمها السياسي والاقتصادي، فهو شديد الكره للإسلام، وخصوصا أمة اللغة العربية، الحاملة لرسالة الإسلام، ومستودع كتاب الله وسنة نبيّه، بل لقد افلح في تكوين أجيال تروّج لثقافة الحداثة الغربية على أنها النموذج الأفضل للبناء والرقي الحضاري، وينادون بضرورة تجاوز ماضيهم الحضاري، باعتباره مجرّد مخلّفات لم تعد تجدي نفعا في عصرنا الحاضر الذي وضع الغرب معالمه وصوره (الغزالي، د ت، ص32).

ومن تجليات هذا الغزو وسموم مخاطره، أنه يهدف إلى طمس اللغة العربية والتشكيك في مدى فعاليتها وقدرتها على مجاراة لغة التطوّر العلمي والإنتاج الأدبي، ونبقى بذلك عالة على مصطلحات لغتهم التي تشعرنا بفضل علومهم وآدابهم والدّعوة إلى الاهتمام بها والأخذ منها، وفي المقابل تعمل على إبراز فقر آدابنا والتشكيك فيها(السباعي، د ت، ص29)، والغاية المقصودة من وراء هذا إنما هي إضعاف فهم الدّين ومقاصد خطابه التي تستوعب كل ما يحتاج الإنسان فهمه وبلوغه، فالغرب مدرك تمام الإدراك أن فهم الدين الإسلامي لا يتحقق إلا باللغة العربية المتقنة، وعليه فإن طمسها وزرع الشكوك حولها هو بوابة لهدم الدّين نفسه (حجاب، 2004، ص108- 110). وكل هذا في الوقت الذي نجد الأمم الراقية التي أدركت قيمة اللغة في البناء الحضاري، تعمل بكل جدّ وتوفّر آليات تمكين لغاتها من الصّمود والانتشار عالميا باعتبارها وعاء حضاريا يترجم ثقافتها.

هذا الغزو الذي أصبحت مطارقه تنهال بعنف على مقدساتنا، لا يمكن مجابهته ومقاومته بتقصير الجلابيب وإطالة اللحى، فهذا نهج فكري مثير للسخرية، وإنما نخاصمه بمقاومة الأسباب التي أسهمت في تعبيد الطريق له، مثل ظاهرة الاستبداد وما نتج عنها من إهمال لمطالب الشعب، وأولئك الذين جعلوا الدّين مجرّد مراسيم نصية جامدة تعبد كما هي، من غير تدبر واجتهاد، وكذلك أولئك الذين يخالفون فطرة الإنسان السليمة، والمروجون للمرويات التافهة خدمة لمصالح ضيقة (الغزالي، د ت، ص65).

الخاتمة

لقد قصد الإسلام إلى تكوين وبناء أمة متميّزة، قادرة على قيادة البشرية، وتخليصها من براثن الجهل ومناهج القيادة الضالة، وتصوّراتها للوجود وقضايا الخلق، فدعاه إلى السير وفق المنهج الرباني

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والسهر على تجسيده، لأنه الكفيل بالنجاح في إنشاء هذه الأمة، وتكوين الإنسان الصالح، الذي يملك فعالية القيادة والتغيير نحو الأفضل، ومن هذا المنطلق فقد كانت للخطاب الإسلامي عموما والمعاصر منه تخصيصا، خصائصه ومعالمه التي تميزه، وهي الخصائص التي جاءت بها رسالة الإسلام.

- يشهد الخطاب الإسلامي المعاصر تحديات شائكة، تعيقه عن تحقيق الأهداف التي يسعى إليها، هذه التحديات منها ما يرتبط بواقع المجتمع الإسلامي داخليا، ومنها ما يرتبط بواقع الصراع الديني العالمي الذي يهدف في أساسه إلى طمس الهوية الإسلامية، لما فيها من معاني القيم الإنسانية السامية، وقدرتها على استقطاب شرائح واسعة من البشرية إن هي وجدت من يساعد في تفعيل رسالة الإسلام ونشرها، ويبدو أن الغرب المعادي للإسلام قد تفطّن إلى هذه المسألة، وأصبح يشنّ حربا استباقية بصور مختلفة هدفها تلهية وتوجيه خطابات الفكر الإسلامية نحو مسائل تشغلها عن التمكن من تفعيل قيم رسالة الإسلام.

- تعدّد خطابات الفكر الإسلامي الساعية إلى النهوض بالأمة الإسلامية وتجديد قيمها الحضارية ورغم أنه يبدو حالة صحية جيّدة يعيشها الفكر الإسلامي، إلا أنّ هذا التعدّد من جانب آخر قد فتح بابا لتوسيع دائرة الصراعات الفكرية، التي غذّت منافذ الفشل في توحيد الرّؤية المستقبلية، خصوصا وأن حملات الغرب تراهن على مثل صور هذا الشرخ الفكري لتوسعة نفوذها وزرع سموم حضارتها.

- في الأخير يمكن القول أنّ السعي إلى توحيد المرجعية الدّينية في العالم الإسلامي - وبخاصة السنيّ منه - وتبني خطاب ديني متوازن تتفاعل فيه قيم تراثنا الإسلامي، مع مستجدّات ورهانات الحاضر من شأنه مواجهة العديد من التحديات، والنجاح في إرساء دعائم مجتمع حضاري له مميّزاته الحضارية، وعناصر إثبات الهوية.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: باللغة العربية

1- القرآن الكريم.

2- الترمذي محمد بن عيسى، (2015)، سنن الترمذي، ط2، تح، رائد بن صبري ابن أبي علفه، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض.

3 – الجابري محمد عابد، (1994)، الخطاب العربي المعاصر دراسة تحليلية نقدية، ط5، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

4- حجاب محمد منير، (2004)، تجديد الخطاب الديني في ضوء الواقع المعاصر، ط1، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة.

5- الحديدي هشام، (2000)، الإرهاب بذوره وبثوره زمانه ومكانه وشخوصه، ط1، الدار المصرية اللبنانية، بيروت.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

6- حسنة عمر عبيد، (1998)، الاجتهاد للتجديد سبيل الوراثة الحضارية، ط1، المكتب الإسلامي للطباعة، بيروت.

7- الراوي فؤاد محسن، (2009)، الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي، ط1، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان.

8- زقزوق محمد حمدي، (1989)، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ط2، دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

9- الزيدي مفيد، (2000)، التيارات الفكرية في الخليج العربي 1930- 1971، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

10- السباعي مصطفى،(د ت)، الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، د ط، دار الورّاق للنشر والتوزيع، د م ن.

11- السّباعي مصطفى، 1999، من روائع حضارتنا، ط1، دار الورّاق للنشر والتوزيع، بيروت.

12- سرى طارق، 2006، المستشرقون ومنهج التزوير والتلفيق في التراث الإسلامي، ط1، مكتبة النافذة، مصر.

13- شبار سعيد، (2016) الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا.

14- عبد اللطيف كمال، (1992)، مفاهيم ملتبسة في الفكر العربي المعاصر، ط1، دار الطليعة، بيروت.

15- عبده محمد، (1988)، الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية، ط3، دار الحداثة.

16- العالم محمود أمين، (1998)، الفكر العربي بين الخصوصية والكونية، ط2، دار المستقبل العربي، القاهرة.

17- العلواني طه جابر، (1994)، إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات، ط2، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض.

18- علي، حيدر إبراهيم، (1996)، التيارات الإسلامية وقضية الديمقراطية، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

19- عمارة محمد، (2003)، الإسلام والأقليات، الماضي... الحاضر... المستقبل، ط1، دار الشروق الدولية، القاهرة.

20- عمارة محمد، (2009)، معالم المنهج الإسلامي، ط2، دار الشروق، القاهرة.

21- الغزالي محمد، (د ت)، الغزو الثقافي يمتدّ في فراغنا، د ط، دار الشروق، القاهرة وبيروت.

22- غليون برهان، (1990)، اغتيال العقل محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية، ط3، مكتبة مذيولي، القاهرة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

23- الفرفور محمد عبد اللطيف صالح، (2002)، خصائص الفكر الإسلامي، ط1، دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.

24- القرضاوي يوسف، (1983)، الخصائص العامة للإسلام، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت.

25- القرضاوي يوسف، (2008)، مدخل لمعرفة الإسلام مقوماته خصائصه أهدافه مصادره، ط4، مكتبة وهبة للنشر والتوزيع، القاهرة.

26- قطب سيد، (د ت)، خصائص التصوّر الإسلامي ومقوّماته، د ط، دار الشروق، القاهرة وبيروت.

27 - قطب سيد، (1979)، معالم في الطريق، ط6، دار الشروق، بيروت والقاهرة.

28 - المحافظة علي، (1983)، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1798-1914 الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية، د ط، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت.

29- المحجوبي خالد إبراهيم، (2010)، الاستشراق والإسلام (مطارحات نقدية للطروح الاستشراقية)، د ط، أكاديمية الفكر الجماهيري، ليبيا.

30- المسير م، (2002)، قضايا الفكر الإسلامي المعاصر، د ط، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

31- المسيري عبد الوهاب، (1998)، معالم الخطاب الإسلامي الجديد، د ط، مجلة المسلم المعاصر، عدد 86، لبنان.

32- الناصر محمد حامد، (2001)، العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب، ط1، مكتبة الكوثر للنشر والتوزيع، الرياض.

33- النبهان، محمد فاروق، (2012)، الاستشراق تعريفه، مدارسه، آثاره، د ط، منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم واثقافة، المملكة المغربية.

34- نخبة من الباحثين والكتاب، (2006)، الخطاب الإسلامي المعاصر«دعوة للتقويم وإعادة النظر»، ط1، مركز البحوث والدّراسات، الدّوحة.

35- الندوي أبو الحسن، (1968)، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، ط2، دار الندوة للتوزيع، بيروت.

ثانيا: باللغة الفرنسية

1- Renan, Ernest, calmant Levy l'avenir de la science. éditeur, paris, p50 ,51.

ثالثا: مواقع الأنترنيت

1- وسام فؤاد، (2005)، الخطاب الإسلامي.. الماهية ودلالات التّجديد، https:// wessamfauad.blogspot.com

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com